تحريك القلوب بقصة نبي الله يوسف بن يعقوب

د. طالب بن عمر الكثيري

talebkh.net

وهي سورة مكية، جاءت تثبيتًا لنبينا ﷺ، آمرة بالصبر، مبينة حسن عواقب أولياء الله فيه، من خلال قصة نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام .

وقد قصّ علينا ربنا في كتابه القصص، وقال سبحانه: (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)، بل أمر رسوله ﷺ أن يقص علينا ما قصه الله عليه: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وليس المراد من القصص مجرّد الإمتاع، ولا التسلية بحديث مفترى مُختَلَق، فيه حبكة الرواية، وعقدة القصة، لا والله، بل كما قال الحق عز وجل: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ)، في قصص القرآن عظة وعبر، (مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى)، ليس قصصاً خيالية، ولا قصصاً مؤلفةً مُختَلَقة، (وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)، تصديق ما بين أيدي اليهود والنصارى من الأخبار، (وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وقد كان سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – يتلوون هذه السورة، ويتدربون آياتها، ويخشعون لعظاتها، يقول الفراصة بن عمير رحمه الله: "ما أخذت سورة يوسف إلا من قراءة عثمان بن عفان كان يقرأها في صلاة الصبح؛ من كثرة ما كان يرددها"، ويقول عبد الله بن عامر رحمه الله: "صلينا وراء عمر بن الخطاب ﷺ؛ فقرأ بنا في صلاة الصبح بسورة يوسف، وسورة الحج قراءة بطيئة، قلنا: لقد كاد الصبح أن يطلع، قلت: أجل"، رواهما الإمام مالك .

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)

الر: من جنس هذه الأحرف أنزل الله تعالى هذا الكتاب الذي:

١- رفع الله قدره .

٢- وجعله واضحًا أشد الوضوح في ألفاظه ومعانيه، مبينًا لكل ما يحتاجه الناس من العلوم النافعة .

ومن بيانه وإيضاحه:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)

أن الله تعالى أنزله بلسانٍ عربي، وهو أشرف الألسنة وأبينها، على أشرف رسول، بسفارة أشرف ملك، في أشرف مكانٍ وزمان؛ لنعقل حدوده، وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه؛ فنزداد بذلك عقلاً وفهمًا .

ومن بيانه وإيضاحه:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)

ما قصَّه على رسولنا ﷺ من أحسن القصص، فعلِمها بهذا الوحي، وقد كان قبل نزوله عليه جاهلاً عنها وعن غيرها مما علّمه الله؛ كما قال تعالى: (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)، وقال: (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا) .

أ- وهي أحسن القصص؛ لأنها من أعظم قصص القرآن، وأحسنها أسلوباً، وأروعها حواراً، وأعمقها عبراً وعظات؛ أفرد الله لها سورة كريمة، ما ذُكرت قصته إلا في سورته، ولا ذُكر في سورته إلا قصته .

ب- وهي أحسن القصص؛ لأنها تنقلك من حالٍ إلى حال، ومن حياة إلى حياة، من حياة البادية إلى حياة الحاضرة، من حياة الملوك والقصور إلى حياة سوقة الناس وعامتهم، من حياة الخدم إلى حياة المساجين، تخبرك هذه السورة عن تلك الطبقة المخملية، وأيّ شيء يكون في نساء علية القوم ؟، ثم تخبرك بعد ذلك عن حياة البؤس والكد في عيش الكادحين، تغوص هذه السورة في أدق من هذا وأكبر؛ لتحدّثك عن نوازع النفس البشرية، أيّ شيء يكون في هذه النفس من حسد، ثم مؤامرات، ثم إلقاء يوسف عليه السلام في الجب! أيّ شيء يكون في هذه النفس من فاحشة وهوى، ثم مؤامرات ثم إلقاء يوسف عليه السلام في السجن ! تحدّثك هذه السورة عن النفوس العالية السامية التي تستعلي على المعصية والفاحشة، التي لا تعرف إلا التسامح والعفو عن الجميع مهما صدر منهم وكان .

ج- هي أحسن القصص؛ لأنها قصة تخبرك عن الأنبياء والصالحين، وعن الأبوة والأخوة، وعن الملوك والمماليك، وعن العبيد والخدم، وعن الملائكة والشياطين، وعن الرجال والنساء، وعن الطير والأنعام، قصةٌ تنقلك من حالٍ إلى حال؛ من بادية إلى حاضرة، من ذل إلى رفعة، من جدب إلى خصب، قصةٌ فيها حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، وشاهد ومشهود، وظالم ومظلوم، وسجن وسجّان، وداعية ومدعو، قصةٌ تتابعت أحداثها، وتشابكت عقدتها، وصُوِّرت لك أشخاصها، فكأنك تراها وتنظر إليها، وأنت تقرأها في كتاب الله عز وجل .

فأيّ قصةٍ هذه القصة ؟ فيها ذكر علوم الاجتماع والاقتصاد، وعلوم السياسة والزراعة، وعلوم التربية والدعوة، وتحدّثك عن الإيمان والتوحيد، فلا غرو أن تكون أحسن القصص، لا عجب أن يكون فيها العظة والعبرة لكل مؤمن ولكل سائل .

د- هي أحسن القصص؛ لأن عاقبة كل من ذُكر فيها كانت إلى خير.

هـ- هي أحسن القصص؛ لما فيها من حسن المحاورة، وروائع العبر، وبديع الحكم.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ

وأما صاحب القصة يوسف عليه السلام؛ فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، يوسف الذي اجتمع فيه طيب النسب، واجتمعت فيه طيب الصفات، يُسأل رسولنا ﷺ كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ: أيّ الناس أكرم، يا رسول الله ؟ قال: "أكرم الناس أتقاهم"، قالوا: ليس على ذلك نسألك، قال: "فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله"، ووصفه ﷺ فقال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم"، رواه البخاري .

يوسف عليه السلام هو شخصية قصتنا القرآنية هذه، لا يكاد يخرج من محنة إلا ويقع في محنة أشد، هكذا من محنة إلى محنة، فما خرج إلا عبداً نبياً تقياً زكياً، أيّ محن هذه التي اختبر الله وابتلى يوسف عليه السلام بها ! :

أ- من محنة حسد إخوته له، إلى إلقائهم له في الجب.

ب- من محنة الهوى والشهوة من امرأة العزيز، إلى إلقائه في السجن والغربة والوحشة.

ج- من محنة التهمة بالباطل إلى البقاء في السجن بضع سنين.

د- من محنة الاستشارة والوزارة، إلى المنصب والجاه والملك.

فالأولى محنة حسد وعداوة، والثانية محنة شهوة وهوى، والثالثة محنة سجن وابتلاء، والرابعة محنة سرّاء، ويوسف عليه السلام يخرج من هذه المحن تقياً نقياً لا شائبة ولا فتنة، (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) .

وتبدأ القصة برؤيا منامية، رآها يوسف في منامه، وإذا أراد الله أمراً من الأصول العظام قدّم بين يديه مقدمة؛ لتكون توطئة له، واستعداداً لما يرد من المصاعب والمشاق .

رآها يوسف عليه السلام وأخبر بها أباه؛ وأبوه هو يعقوب، يعقوب الملقب بإسرائيل، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، استقر بأرض الشام حول بيت المقدس، ورزقه الله تعالى باثني عشر ولداً ذكراً، وهذه من نعم الله على عباده، أصغرهم يوسف عليه السلام، كان صغيراً، كان في سن صغيرة؛ حتى أن أباه كان يخشى عليه أن يأكله الذئب، ورأى الرؤيا، وقصّها على أبيه؛ لأنه لا يُسأل ويُستفتى إلا العالم، ولأنه لا يُستشار إلا الناصح.

يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

ورؤيا الأنبياء حق، والرؤيا الصادقة من المبشرات، وليست كل رؤيا صادقة تدل على صدق رائيها، فالملك الكافر رأى رؤيا صادقة وليس هو بشيء، بل مثلها إذا وقعت على ندرة كمثل خبر الكاهن قد يصدق في شيء من خبر السماء، وهو ليس هو بشيء، لكنها إن تكررت وصدقت دلت على صدق الرائي، يقول عليه الصلاة والسلام: "أصدقكم حديثاً أصدقكم رؤيا" .

وأدب الرؤيا الصادقة ثلاثة أشياء؛ فإذا رأيت رؤيا طيبة: فاحمد الله عليها، واستبشر بها، ولا تحدث بها إلا من تحب، وأما الرؤيا المكروهة فأدبها ستة أشياء: فإذا رأيت ما تكره في منامك: فتعوّذ بالله من شرها، وتعوذ من الشيطان الرجيم، واتفل عن يسارك ثلاثاً، ولا تخبر بها أحداً أصلاً، وتحوّل عن جنبك، وقم وصلِ .

والرؤيا على رجل طائر، فمتى ما عُبرت وقعت؛ لذلك يقول عليه الصلاة والسلام: "لا تخبر بها إلا لبيباً أو حبيباً"، وأغلب تأويل الرؤى يكون على المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، مع أن تعبير الرؤى أمر عظيم؛ لأنه من القول على الله والقول على الملك، قال تعالى في سورة يوسف في شأن الرؤيا: (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا) فهي فتوى، فاتق الله أن تعبّر ما لا تعلم.

وأغلب تأويل الرؤى يكون على المشابهة في الاسم والصفة:

أ- فالكواكب كالنجوم هداية في السماء، والأنبياء هداية للناس، وأحد عشر كوكباً كأحد عشر نبياً.

ب- أعظمها الشمس والقمر، والشمس مؤنث فهي الأم، والقمر مذكر فهو الأب.

ج- والسجود يدل على التقدير والاحترام ورفع المنزلة.

وهنا يتنبه الأب لهذه المكانة العظيمة التي سيصل إليها يوسف:

١- تنبه يعقوب عليه السلام أن يوسف سيكون الحلقة الرابعة في سلسلة الاصطفاء النبوية؛ إبراهيم، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف عليهم الصلاة والسلام.

٢- تنبه يعقوب لما يكون في العادة بين الأخوة من تنافس، وخصوصاً إذا تميز عليهم الابن الصغير الذي هو من أم أخرى؛ كما جاء في بعض الأخبار .

وأحياناً يقع في نفس الأب أو في نفس الأم شيءٌ من الشر يتوقعه قبل أن يقع على أبنائه؛ فيكون الأمر كما يشاء الله؛ لذلك وجهه بهذا التوجيه:

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ

أمره أن يكتم هذه النعمة، ونحن مأمورون بكتمان النعمة إذا خشينا حسداً أو ضراً، ألم يقل لنا رسولنا ﷺ: "استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود"، والحسد غالباً ما يحدث بين الناس الذي بينهم قاسم مشترك؛ كأن يجتمعوا في علم، أو يجتمعوا في مهنة، أو يجتمعوا في قرابة، فتجد أن الحسد يكثر كثيراً بين الأقران والإخوان والأقارب؛ لذلك تنبه يعقوب عليه السلام، فأمر ابنه بأخذ الأسباب، أسباب دفع العين والحسد عنه، وهذا شأنه عليه الصلاة والسلام، قال لأبنائه الأحد عشر لما أرادوا أن يدخلوا مصر: (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ

مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ)، فالمسلم مأمور بأن يتخذ الأسباب، ويدفع عن نفسه الشر، حتى لا يقع عليه.

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا

أيّ: فيحسدونك ويبغونك الشر، ويحتالون عليك حتى يوقعوا عليك الضر، والكيد: هو التدبير في خفاء لإيصال الضر إلى الإنسان من حيث لا يشعر.

وهنا كأن يوسف عليه السلام يتعجب، ولماذا يفعل إخوتي بي هذا ؟! ولماذا يحسدونني ؟! فيأتي جواب أبيه الحكيم:

إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥)

إنه الشيطان الذي يوقع الشر بين الناس؛ بمكائده ومصائده، يوسف هذا أولاً: يجب علينا أن نتخذ الأسباب لدفع الشر والحسد بينك وبين إخوتك، وثانياً: يا يوسف، إليك تأويل الرؤيا، وهي في ثلاث جوائز عظيمة:

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ

١- أي: تأويل الرؤيا أن يجتبيك ربك ويصطفيك.

وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

٢- يعلمك من أحاديث الكتب السماوية ويعلمك من تعبير الرؤى؛ لأن الرؤى إما حديث نفس أو ملك أو شيطان.

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ

٣- يتم عليك النعمة في الدنيا والآخرة، فيتم عليك نعمة النبوة والملك.

وفي هذا جواز أن يُذكر الإنسان بسوء على وجه النصيحة، وجواز أن يُمدح الرجل في وجهه إذا أُمنت الفتنة .

كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

كما أتمها على جد أبيك إبراهيم عليه السلام بالخلة، وعلى ولده جدك إسحاق عليه السلام بالنبوة، وجعل الأنبياء والملوك من ولده، قال البقاعي: "وإتمام النعمة: الحكم بدوامها على خلوصها من شائب فيها بنقصها".

لأنه سبحانه:

أ- عليم بمن يستحق الاصطفاء.

ب- حكيم سبحانه حيث يجعل نبوته ورسالته، ألم يقل سبحانه: (اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، والحكمة وضع الأشياء في أجود مواضعها .

ثم تمضي القصة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "كان بين الرؤيا وبين تأويلها أربعون سنة؛ كما هو قول أكثر المفسرين"؛ أربعون سنة مُلئت بالأحداث والوقائع والأحوال المختلفة، انتقل فيها يوسف من حال إلى حال، والتقى بأشخاص من أنواع وطبقات شتى، وصارت له من العجائب والغرائب .

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧)

في هذه القصة مواعظ وعبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة؛ للسائلين بلسان المقال، وللسائلين بلسان الحال، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يُستخبر عنه، والباحثون عن الحق هم الذين ينتفعون بالآيات بخلاف المعرضين، فاقبل على سماع هذه القصة بمسامع قلبك .

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ

يقصدون أخاه من أمه، وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء، وبخاصة حين يكون الوالد في سن الكبر.

أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨)

يقولون: هذا غلطٌ ظاهر:

١- كيف يفضل اثنين على عشرة ؟ والعشرة أكثر له نفعًا.

٢- كيف يفضله علينا دون موجب نراه، ولا أمرٍ نعلمه؟ .

وما أخطأ نبي الله يعقوب عليه السلام:

١- وإنما أحب يعقوب ابنه يوسف لما رأى عليه من علامات النبوة واكتساب الكمالات، وقد حاول أن يخفي حبه ليوسف، والمرء لا يلام على ميلان قلبه.

٢- وأما ما ظهر من مزيد اهتمامه به فلعظيم ما سيحصل له، ولأهمية ما يحتاج إليه من التربية والتعليم .

- وفي هذا الموضع وقفة؛ لبيان أهمية العدل في كل الأمور حتى في معاملة الوالد لأولاده؛ فيعدل الأب وتعدل الأم بين الأبناء في المحبة والإيثار، وفي كل شيء يستطيعانه، أيسرك - أخي- أن يكونوا لك في البر سواء، فاتق الله واعدل بين أولادك، كان بعض السلف رحمهم الله يعدلون بين أولادهم حتى في القبلات.

لكن الله أراد أمرًا كان مفعولاً، وتأتي المكيدة التي ما سمع التاريخ بمثلها:

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)

وكانت خطة الجريمة من خطوتين:

١- اقتلوه أو غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة؛ فلا يتمكن من رؤيته، حتى يخلص لكم أبوكم ويصفو؛ فإن قلبه اشتغل بمحبة يوسف فليس يتفرغ لكم.

٢- ثم بعد هذه الجريمة تتوبون إلى الله وتستغفرونه.

فقدموا العزم على التوبة قبل فعل الذنب؛ تسهيلاً لفعله وإزالة لشناعته.

ثم تأمل كيف يزين الشيطان المعصية، ماذا تريدون؟ من وجهة نظرهم التي زينها لهم الشيطان:

١- أنهم لا يرغبون في العقوق، بل يرغبون في إقبال أبيهم عليهم.

٢- ومن وجهة نظرهم أنهم سيكونون بعد ذلك قوماً صالحين.

٣- وكذلك غرّهم الشيطان أن فعل ذنب واحد، ثم التوبة منه سيكون سبباً لزوال الموجب لداء الحسد، المتسبب في ذنوب متصلة من البغضاء والمقاطعة والشحناء.

٤- وهوّل الشيطان في أذهانهم أفعالاً يسيرة من محبة أبيهم لأخيهم، واعتنائه به، وهوّن عليهم أفعالاً شنيعة، يعزمون عليها .

هذه دسائس خطوات الشيطان؛ يزين المعصية ويمني العاصي بالتوبة، فإذا وقع فيها يأسه من رحمة الله تعالى، (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) .

هكذا يفعل الحسد، الحسد يعمي ويصم، ويطفئ نور البصيرة على المؤمن، سُئل الحسن البصري رحمه الله: أيحسد المؤمن؟ قال: سبحان الله ما أنساك لإخوة يوسف! .

قد يقع الحسد بين المؤمنين، قد يقع الحسد بين الإخوة، وما أقبح آثار الحسد؟:

- حسد إبليس لآدم أدى لنزول آدم إلى الأرض، وهي أول معصية كانت في السماء.

- وحسد ابن آدم لأخيه أدى إلى قتله، وهي أول معصية كانت في الأرض.

يقول عليه الصلاة والسلام: "إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا .. وكونوا عباد الله إخوانا"، متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

يقول:

أ- ألقوه في قعر البئر شديد الظلمة حيث يغيب خبره، ولا ترتكبوا كبيرة القتل.

ب- يكفيكم أن يأخذه غيركم إلى بلاد بعيدة؛ فيغيبه عن وجه أبيكم.

وهذا وإن كان من الشر العظيم، لكن بعض الشر أهون من بعض، ويتفقون على هذه المكيدة، ويأتون أباهم :

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ

١- نادوه بلفظ الأبوة استعطافاً له، وتحريكًا لحنو الأب الذي جبلت عليه طبائع الآباء.

٢- وبادروا باتهامه أنه لا يأمنهم على أخيهم؛ ليدفعوه للموافقة على طلبهم؛ إثباتًا لعدم تخوينه لهم ! .

وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)

ونحن مشفقون عليه ما نود له إلا ما نوده لأنفسنا، وقد كان يعقوب عليه السلام لا يرسله مع إخوته للبرية، فقالوا: أرسله معنا نحوطه ونكلؤه وننصح له، فنفوا المانع من إرساله، ثم ذكروا ما في إرساله من المصالح العظيمة:

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)

أرسله معنا غدًا :

أ- يأكل كيف شاء.

ب- يتنزه في البرية، يستأنس بما يرى من خضرة الطبيعة، وبما يسمع من تغاريد البلابل.

ج- ونحن حافظوه لك من أن يناله شيء تكرهه، فعزوا لأنفسهم الحفظ لأنهم كبار، وليوسف اللعب لأنه صغير.

والصغير له حق في اللعب، تقول عائشة رضي الله تعالى عنها: اقدروا قدر الجارية صغيرة السن الحريصة على اللعب، فالصغير له حقٌ أن يُلاعبه أبوه وأن يُداعبه، لكن يعقوب عليه السلام ردّ عليهم بما في نفسه:

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ

قال لهم أبوهم:

أ- إن مجرد ذهابكم بيوسف يشق عليّ، هذا هو المانع الأول.

ب- والمانع الثاني وأخاف أن يأكله الذئب؛ لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب.

وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)

وأنتم عنه مشتغلون بالرتع واللعب غير مهتمين بحفظه.

في بعض الآثار: أن الله عاتب يعقوب عليه السلام بسبب هذه الكلمة؛ ففقد ابنه أربعين سنة، كيف تقول: أخاف أن يأكله الذئب، ولم تقل كما قلت في آخر القصة: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)، وهنا جاء جوابهم سريعًا:

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)

اقتنصوا فرصة الرد على هذه الحجة، واستبعدوا هذا ؟كيف يأكله الذئب ونحن عشرة من الرجال، ولا نستطيع أن نحمي أخانا من الذئب؛ إذًا لا خير فينا، ولا نفع منا.

ورضي الأب، وسيذهبون به غدًا للبرية، فماذا سيفعلون ؟ .

وخرج إخوة يوسف عليه السلام به بعد أن أقنعوا أباهم يوم أمس أنهم يحفظونه:

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)

فلما ابتعدوا به عن أعين أبيهم، واتفقوا سابقًا على إلقائه في الجب، وهنا حُذف جواب الشرط، لم يذكر الله ماذا فعلوا؟ لأنهم ههنا فعلوا فعلاً لا يوصف، ذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه:

١- ثم شرعوا يؤذونه بالقول ويشتمونه.

٢- ويؤذونه بالفعل ويضربونه.

لقد اجتمعوا وربي على أمر عظيم:

١- من قطيعة الرحم.

٢- وعقوق الوالد.

٣- وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له.

٤- وبالكبير ذي الحق والحرمة والفضل؛ ليفرقوا بينه وبين ابنه.

وسبحان الله قد تكون عداوة القرابة أشد من عداوات الأجانب:

أ- أيّ غيظ يحلمونه على يوسف حتى احتالوا هذه الحيلة ودبروا هذه المكيدة، ما زال الغيظ في قلوبهم حتى قالوا بعد سنين: (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)، يقصدون يوسف.

ب- أيّ حسد هذا! وهم لم يرحموا بكاء أبيهم سنين، ولم يعترفوا بجرمهم، بل يقولون كلما ذكر لهم يوسف: (تالله إنك لفي ضلالك القديم)، (تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين).

لكنه الحسد الذي يعمي ويصم، ولنعلم أنه لا ينبغي لنا أن سب أبناء يعقوب؛ لأنهم تابوا بعد ذلك وتاب الله عليهم واجتباهم سبحانه تمام النعمة على آل يعقوب في قول جمع من المفسرين، لكنها حكمة الله وأخذ العبرة .

هكذا يفعل الحسد بالناس، قد يوقعهم في القتل قد يوقعهم في السحر وأشد المعاداة، فلا تتعجب بعدها من حاسد ! :

١- نزعوا منه قميصه، ذبحوا شاة ثم لطخوا قميصه بدمها.

٢- أنزلوه، فلما نزل قطعوا الحبل.

٣- جعلوا أخاهم في ظلمات البئر حيث لا أنيس إلا الظلام، ولا مخلوق إلا الثعابين والهوام.

فكيف كان حال يوسف، وهو في تلك الظلمة في تلك البئر المهجورة! :

- طفل بلا طعام ولا ماء.
- بلا خبز ولا كساء.
- لا أهل ولا أقرباء.
- لا يسمع حوله إلا صوت ذئبٍ يعوي في صحراء مدوية.

والله لو كان كبيرًا لخاف فكيف وقد كان صغيرًا، لكن الله معه، وكفى بالله وليًا ونصيرًا:

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)

أوحى الله إليه وهو في هذه الحالة وبشرّه:

- سيأتي اليوم يا يوسف تخبرهم بما فعلوا بك بعد أن يمكنك الله.
- يا يوسف ستخبر أخوتك بالذي كان منهم، ولن يعرفوك:

أ- لأنهم لم يخطر ببالهم أن الله ينجيك ويجتبيك.

ب- لن يعرفوك؛ لأنهم لم يخطر ببالهم قدر ولاية الله بعباده المؤمنين، لكن اصبر؛ فالعاقبة للمتقين.

هذا الوحي جاء في هذه الساعة؛ لتثبيت يوسف عليه السلام ولجبر خاطره؛ فإنه المظلوم الذي أوذي من إخوته، والمظلوم يحتاج إلى جبر خاطره، هكذا علمنا القرآن أن نحرص على جبر الخواطر المنكسرة، ألم يقل الله تعالى في التي كسر خاطرها بسبب طلاقها: (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)، ألم يقل الله تعالى جبراً لخاطر الأيتام والمساكين الذين يحضرون قسمة الميراث: (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا)، فالله جابر قلوب عباده، لطيف سبحانه، يوصل لطفه إلى عباده بطرق خفية.

وإذا العناية لاحظتك عيونها نمْ فالحوادث كلهن أمان

ولكي تكتمل فصول التمثيلية:

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)

ويمشي القاتل في جنازة المقتول، أتوا عشاءً ليكون إتيانهم متأخرًا وبكاؤهم دليلاً على صدقهم، لكنهم في الحقيقة لم يبكوا وإنما تباكوا، وانظر إلى تسرعهم الذي فضحهم:

أ- ألقوا يوسف في البئر من أول يوم خرجوا به للبرية، وما تركوا مجالاً لإعذارهم .

ب- لم يبحثوا عن أيّ مبرر يشهد لهم غير ما حذّرهم منه أبوهم بالأمس، ونفوا بتهكم أن يقع منهم.

ج- لطخوا القميص بالدم دون أن يتقنوا فعلتهم، ونسوا تمزيق القميص .

د- لم يحضروا أيّ بقايا ليوسف بعد أن أكله الذئب، وكأنه أكل منه كل شيء إلا قميصه .

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ

والعذر: قالوا يا أبانا:

أ- إنا ذهبنا نستبق، نتسابق بالعدو على الخيل أو على الأقدام، نتسابق بالرمي بالسهام.

ب- وتركنا يوسف عند متاعنا: ليحرس لنا ثيابنا، تركناه في مكان أمين حيث نحفظ ثيابنا ومتاعنا.

فأكله الذئب، أيّ ذئب!.

الذئب الذي كان قد حذرهم أبوهم منه، وقالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذًا لخاسرون، ثم سبحان الله أكله الذئب.

وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)

حتى لو كنا عندك من أهل الصدق ما صدقتنا في هذه القضية:

أ- لشدة محبتك ليوسف.

ب- وما علق في قلبك من تهمتك لنا.

ولكن عدم تصديقك لنا لا يمنعنا أن نعتذر إليك بالعذر الحقيقي، أنت معذور يا أبانا في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق.

وتأمل شؤم الذنوب، فالذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، كم مرة كذب أخوة يوسف على أبيهم، وكرروا الكذب بعد الكذب، أعوامًا وهم يكذبون على أبيهم، وأصروا على إخفاء الحقيقة ولم يتوبوا ويبينوا، واهتدى أبوهم لكذبهم :

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

أيّ زينت لكم أنفسكم أن تفرقوا بيني وبين ابني يوسف، ما الذي فعله لكم أبوكم؟ ما الذي جناه عليكم أخوكم؟.

ويرى يعقوب عليه السلام قميص يوسف، ويستدل بقرائن الحال، قال يعقوب:

- سبحان الله! إن كان هذا الذئب لرحيمًا ! كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه ؟.
- هل خلع قميص يوسف أولاً، ثم أكله ثانيًا، ثم مسح القميص بدمه ثالثًا ؟ .

كذب مفضوح، ولا بد أن يترك الكذاب أثرًا يدل على جريمته، لكن ماذا سيقول هذا النبي؟ ولمن يتوجه؟ قال عليه السلام:

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

إلى من أشكو ؟ والذي خذلني هم أبنائي، إلى شامت يشمت فيّ؟ كان يعقوب عليه السلام من قبل لا يستطيع أن يفارق يوسف زمناً يسيراً، (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ)، لكن سترون صبر الأنبياء؛ الصبر الجميل، والصبر الجميل هو:

١- الصبر الذي لا جزع فيه.

٢- الصبر الذي لا شكوى فيه لأحد، إلا للواحد الأحد.

٣- والله أستعين على كفايتي شر ما تصفون من الكذب .

يعقوب عليه السلام قال في الولد الأول: فصبرٌ جميل، والله المستعان على ما تصفون، وقال في الولد الثاني: فصبرٌ جميل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا ، والصبر سبيل الفرج، فمن كان يظن أن يوسف يُلقى في البئر طفلاً، ثم يدخل السجن في قضية تتعلق بوزير الملك، ثم يصير بعد ذلك كله ملك مصر !! .

يقول أحد أهل العلم وهو يتعجب من قميص يوسف الذي كان ثلاث آيات:

١- حين ادعوا أن الذئب أكله فضحتهم سلامة القيمص.

٢- وحين ادعت امرأة العزيز أن يوسف اعتدى عليها، كان دليل البراءة سلامة القميص من جهته الأمامية.

٣- وحين أُلقي قميص يوسف على وجه أبيه ارتد بصيراً، فسبحان الذي يدافع عن أوليائه بما شاء .

ثم تولى يبكي عله السلام، وفي بعض الآثار: أن الملائكة بكت لبكاء يعقوب عليه السلام، كان أبو بكر رضي الله عنه يقرأ سورة يوسف في صلاة الفجر فإذا بلغ قوله تعالى: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) بكى وبكى الناس معه، وافترق يوسف ويعقوب عليهما السلام أربعين سنة، افترقوا ليلتقوا في آخر القصة بعد أحداث مؤلمة .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ

وجاءت سيارة؛ رفقة مارة تسير من الشام إلى مصر، وعبروا بالقرب من هذه البئر، فأرسلوا واردهم؛ مقدمهم الذي يستسقي لهم الماء، فأدلى دلوه، فتعلق يوسف بالدلو وخرج إليهم، تعلق يوسف بالحبل؛ لأنه كان صغيرًا؛ إذ لو كان ابن سبعة عشر فأكثر لم يحمله الحبل غالباً .

فلما رآه، قال:

قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ

استبشر برؤية يوسف، ففيه جواز البشارة بالأمر السارّ.

وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً

أخفوه عن بقية القافلة؛ لئلا يشاركوهم في ثمن بيعه، وقالوا لهم: إنما دفعه إلينا أهل الماء؛ لنبيعه لهم بمصر.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)

عليم سبحانه بالذي باعوا يوسف، وعليم سبحانه بالذين كانوا سببًا في أن يكون عبدًا يباع ويشترى، وهو الكريم ابن الكريم، والله عليم بما يعملون، لكنها حكمة الله؛ لتكتمل القصة، وتحصل الحكمة الإلهية .

والعظة معلومة، يا محمد وأنت تسمع هذه القصة اصبر على ما نالك من أذى في ذات الله؛ فإن الله قادر على تغيير ذلك لكن له حكمة، ولأمره أجل .

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

أخذوه إلى مصر، وباعوه هناك بثمن زهيد؛ لأنهم ما علموا فضله ومكانته عند الله .

وهكذا تستمر سورة يوسف بمشاهدها الأخّاذة، وبحديثها الشائق، وبروعتها في الأداء وفي الأخذ بأطناب القلوب.

فكيف عاش يوسف بمصر ولا أب ولا أهل ؟ وإلى يد من صار ؟ وما قصته في قصر العزيز ؟ وما القضية التي رُفعت على يوسف في قصر العزيز؟ .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا

هذه مقدمات التمكين، يقول عزيز مصر الذي اشتراه لامرأته: أكرمي مثواه:

١- عسى أن يكفينا بعض المهمات؛ فنستخدمه كاستخدام العبيد .

٢- أو نتبناه ولدًا، فننتفع به انتفاع الأولاد .

تفرس فيه أنه ينوب عنه في أمر المملكة.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

وقد بدأت خطوات تمكين يوسف عليه السلام من ملك مصر، لما اشتراه عزيز مصر، ومكّنه الله من العيش في قصر العزيز:

أ- فيتعلم كيف تدار الممالك، ويتربى تربية القادة والأمراء .

ب- ويتعلم من العلوم، ومن تعبير الرؤى ما يكون سببًا لتمكينه في الأرض .

فسبحان مسبب الأسباب؛ لحكمٍ بالغة .

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

١- أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته؛ فغلب أمر الله حتى حسدوه.

٢- ثم أراد إخوته قتله؛ فغلب أمر الله حتى صار ملكًا، وسجدوا بين يديه.

٣- أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم؛ فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ولم ينس يوسف.

٤- ثم دبروا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين؛ أيّ تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب، وأصروا عليه زمنًا طويلاً، ثم تابوا بين يدي يوسف عليه السلام، وقالوا: (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين).

٥- ثم دبروا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص؛ فغلب أمر الله فلم ينخدع، وقال: (بل سولت لكم أنفسكم أمرًا).

٦- ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن بدأت بالكلام غلبته في الحجة وألصقت به التهمة؛ فغلب أمر الله حتى قال لها العزيز: (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين).

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)

لذا هم يحاولون أن يغالبوا أحكام الله القدرية، وهم أعجز من ذلك .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

١- ولما كملت قوته الحسية والمعنوية، وصلح لتحمل أعباء النبوة.

٢- آتيناه حكمًا وعلمًا، وجعلناه نبياً وهاديًا ومعلمًا.

لماذا ؟ .

أ- لأنه لا بدّ من الإعداد والتربية قبل مواجهة الفتن.

ب- كذلك نجزي من أحسن في طاعة ربه، وأحسن في ترك معصيته.

وما لبث يوسف عليه السلام أن خرج من فتنة البئر، ومن فتنة حسد إخوته له، ودخل قصر العزيز ينعم فيه بنعيم الدنيا من مطعم ومشرب وملبس، حتى جاءته فتنة شديدة لا يصبر عليها إلا الصابرون، ولا يتقيها إلا المخلصون المحسنون؛ إنها فتنة النساء:

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ

أحبته وعشقته:

١- راودته بابًا بعد باب؛ تطلب منه ما تطلب المرأة من الرجل برفق ولين.

٢- قالت له: (هيت لك) تزينت لك وقربت منك، تعال إلى الحرام.

والعياذ بالله من شر الفتن، وهذه المحنة أعظم من محنته مع إخوته حين ألقوه في الجب؛ لأن:

أ- تلك المحنة كانت محنة اضطرار؛ كسائر المحن بالأمراض والمكاره، فليس للعبد إلا الصبر عليها طائعًا أو مكرهًا.

ب- أما هذه فكانت محنة اختيار، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل:

- فيوسف شاب، وشهوة الشباب أعظم وأكبر.

- وهو أعزب لا زوج له .
- والمرأة سيدة القصر ذات الجمال والسلطان .
- وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.
- وقد تجملت له، ودعته بسائر أنواع الإغراء.
- والمسكن واحد، وقد يقع السوء، ولا يشعر به أحد من الناس.
- وزوجها قليل الغيرة.
- وهو بعد ذلك كله غريب عن بلده، والغريب لا يتحرج كما يتحرج من هو بين معارفه وأهله.
- وصار المحل خاليًا، وقد آمِنا من دخول أحد بعد أن أُغلقت الأبواب، ودعته لنفسها بسائر وسائل الإغراء، قالت له: هيت لك، فماذا قال لها ؟ ماذا قال:

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)

لقد قال قولةً صارت أسوةً من بعده لكل الأتقياء الشرفاء، قال: معاذ الله، يا يوسف كيف صبرت هذا الصبر العظيم على ترك معصية الله ! يا يوسف دفعت خاطر السوء من النفس الأمارة بالسوء، فعشت عفيفًا، ومت شريفًا، وكنت عند الله رفيعًا.

وقد كان المانع الذي منع يوسف من الوقوع في الفاحشة مع توفر أسبابها خمسة أشياء:

أولها: معاذ الله: تقوى الله رب العالمين، ومراقبة إله الأولين والآخرين.

وثانيها: إنه ربي أحسن مثواي، تعظيم جرم خيانة السيد الذي أكرم مثواه.

وثالثها: إنه لا يفلح الظالمون، صيانة لنفسه من الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه.

ورابعها: ما رآه من برهان ربه من العلم والإيمان، فكيف بعد ذلك أدنس عرضي، وأسخط ربي، وأخون سيدي، وأكن من الظالمين.

وخامسها: الجامع لذلك كله، وباختصار أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده الذين أخلصوا عملهم لله، ومن عباده الذين أخلصهم الله تعالى، واختصهم لنفسه.

ومن هنا يتقرر لنا:

(١) وجوب البعد عن محال الفتن والفرار منها، وخطر الخلوة بالنساء اللاتي يخشى منهن الفتنة.

(٢) الحذر من زيادة تعلق القلب الذي قد يقود إلى الفاحشة، وأن العبد :

أ- إذا خطرت له خواطر السوء فليقابلها بمحبة الله تعالى.

ب- إذا خطرت له خواطر الفحشاء فليحرقها بخشية الله تعالى.

ج- إذا خطرت له خواطر الرذيلة فليُغلِّب إيمانه؛ ليغلب هواه، فيكون ممن (خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)، ويكون ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله سبحانه.

(٣) والعبد إذا همّ بالسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة، ويقول الله لملائكته: إنما تركها من جرائي .

(٤) ويتبين لنا أيضًا أن عشق الصور إنما يبتلى به القلب الذي خلا من محبة الله تعالى وخشيته، لذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، أيّ فارغ من محبة غير المعشوق.

(٥) ويتبين لنا أيضًا أهمية التربية؛ تربية الشباب على مراقبة الله، وخاصة أننا أصبحنا في زمانٍ تُعرض الفتن على شبابنا وفتياتنا على صور عظيمة من الإغراء، في محال لا ينظر إليهم فيها إلا الله، وعبر وسائل متطورة، فوا أسفي على منهج يوسف، في هذا الواقع المؤسف، صورة عارية، وكأس وجارية، وشهوات سارية، كلها تقول: هيت لك ، وليس عند الجيل صرخة معاذ الله ! فاتقوا الله، واتقوا الحرام !! .

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ

وهرب يوسف عليه السلام من الوقوع في الفاحشة، وقطعت قميصه من ورائه؛ لأن يوسف كان هو الهارب، وكانت هي الطالبة، وسقط القميص في الأرض، ووجدا سيدها لدى الباب، فلما رأته، بادرت بالكذب واتهمت يوسف عليه السلام:

قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)

١- بادرت باتهام يوسف عليه السلام بأنه هو الذي قام بمراودتها؛ قالت: إنه راودني عن نفسي، فدفعته عن نفسي، فشققت قميصه.

٢- ثم بادرت بإصدار الحكم عليه:

أ- إما يسجن؛ كما يفعل بالمجرمين .

ب- وإما أن يضرب ضربًا شديدًا موجعًا .

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي

وقال يوسف: بل هي راودتني عن نفسي، وفررت منها، فأدركتني فشقت قميصي.

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

فقال الشاهد، قيل: صبيًا في المهد، وقيل: رجل حكيم من أهلها: تبيان هذه الدعاوي في القميص:

أ- فإن كان القميص قد قُطع من الأمام، فصدقت وهو من الكاذبين.

ب- وإن كان قميصه قُطع من الخلف، فكذبت وهو من الصادقين.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ

فأتي بالقميص، فوجده قُطع من الخلف، فعرف كذب زوجته، قال:

قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)

عظيم هو كيد النساء؛ لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن، والكيد هو المكر والحيلة، لأن مكرهن لا يطاق، ويقع بخفاء مع البكاء والادعاء.

ثم جاء حكمه وعلاجه لهذه القضية، ما العلاج ؟:

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)

١- يوسف انس الذي كان .

٢- وأنتِ استغفري على خطئك .

أيّ حل هذا، وقد ترك النار بجوار الحطب، إنما يدل ذلك على قلة غيرته أو انعدامها حيث:

أ- لم يعاقب زوجته.

ب- ولم يفرق بينها وبين يوسف عليه السلام؛ حتى استمرت في مراودته.

وهكذا يفعل بعض الرجال اليوم للأسف، لا يغار من أبطال التلفاز، لا يغار من حديثها مع البائع، لا يغار من تسكعها في الشوارع، لكن الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه .

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ

وتحدث النساء بأمر يوسف وأمر امرأة العزيز في مدينة مصر، وشاع من أمرهما:

امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠)

يقلن: قد وصل حب امرأت العزيز لعبدها يوسف إلى شغاف قلبها؛ أي سويداء قلبها، فدخل تحته حتى غلب على قلبها، وهذا أشد ما يكون من الحب، كيف تحب عبدها، وهي من علية القوم !، هذا هو الخطأ البيّن .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا

فلما علمت امرأت العزيز بقولهن، وعلمت أنه مكر يبغين من خلاله رؤية يوسف:

(١) دعتهن لمأدبة طعام في قصرها.

(٢) وجهزت لهن المتكئات والوسائد.

(٣) وصنعت لهن طعامًا، وأعطت كل واحدة سكينًا؛ لتقطعه .

(٤) وأمرت بتزيين يوسف عليه السلام، وكان أجمل الناس، أخبرنا ﷺ عن جمال يوسف فقال:" أعطي يوسف شطر الحسن"؛ أي نصف الجمال الذي خلقه الله في الخلائق كان ليوسف.

وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)

فلما رأينه:

(١) أكبرنه وعظمنه ودهشن من منظره.

(٢) وأجرين السكاكين على أيديهن، فقطعنها؛ بدلاً من الطعام.

(٣) وذهبت عقولهن، ولم يشعرن بألم القطع من شدة الدهشة بجماله.

(٤) وقلن: معاذ الله أن يكون هذا من البشر، هذا من الملائكة الكرام!.

(٥) وقلن: نحن نلومك على حب هذا الرجل، ونحن قد قطعنا أيدينا وسالت الدماء، من أول نظرة له، فكيف نلومكِ وأنت تساكنينه في بيت واحد.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ

قالت: هذا الذي سلب لبي، واذهل قلبي مثلما فعل بكن، فلا لوم عليّ بعد اليوم، ولما أظهرت لهن جماله الظاهر وحسنه الأخاذ، بيّنت لهن أيضًا جماله الباطن:

وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ

راودته على الحرام فاستعصم؛ أيّ استعف، وامتنع مما أريده طالبًا لعصمة نفسه عن ذلك، فزادها إصرارًا على جريمتها .

وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)

ثم توعدته كاشفة لجلباب الحياء، هاتكة لستر العفاف، مجاهرة أمامهن، مفاخرة بذلك عليهن: إن لم يفعل ما تريده؛ لندخلنه السجن، ونذيقه عذاب الذل والهوان.

فماذا يفعل يوسف عليه السلام، وقد اجتمعت نساء علية القوم عليه، وأبدين له مفاتنهن؛ كعادتهن في هذه المناسبات، وأصبحن يغرينه ويهددنه:

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)

(١) الحل الأول: يا رب لئن اختار السجن وعذاب الدنيا أهون عندي من لذة حاضرة تنقضي، وتوجب غضبك عليّ وعذاب الآخرة.

(٢) والثانية: يا رب إليك ألجأ، وبك أعتصم؛ فاعصمني يا الله من حبائل النساء ومكرهن.

(٣) والثالثة: نظر إلى عواقب المعصية، يا رب إن صبوت لما يردن مني، أكن من الذين جهلوا حقك وخالفوا أمرك، لأني آثرت الفاني على الباقي، وأرضيت الشيطان وأغضبتك يا الله.

هكذا كان يوسف متصلاً بالله دائمًا، في أشد المراودة، يقول: (مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)، وفي أشد المكر مكر النساء، يقول: (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)، وفي لذة الفرح بنصر الله وإحسانه، يقول: (أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا)، ومع العز بعد الذل والظفر بعد الصبر، والتمكين في الأرض: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) .

فما الذي كان؟ :

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

استجاب الله لدعاء يوسف عليه السلام، وصرف عنه كيد هؤلاء النسوة، وهو سبحانه:

١- السميع لدعائه، وكيدهن .

٢- العليم بما سيكون في الغيب من رفعته وتوبتهن .

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)

وبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف، وبعد أن اشتهر الخبر، وصار الناس فيه بين لائم وعاذر وقادح، وقرروا أن يدخلوه السجن؛ لينقطع بذلك الخبر، ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يُذكر كلما وجدت أسبابه، فإذا عدمت أسبابه تناساه الناس .

وسجن يوسف عليه السلام بلا مناقشة ولا محاكمة، ولم يستطع أن يدلي بأقواله، ولا أن يدافع عن نفسه، ولا جعلوا له محاميًا، ولابد من سجن يوسف حتى يتوهم المجتمع أن امرأة العزيز بريئة، وأن يوسف هو المذنب، ويمكث في السجن سنين طويلة، قال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين، فما أعظم صبر الأنبياء ! .

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ

لم يستسلم يوسف في السجن للشكوك والوساوس، ولم يجلس ليبكي على أقدار الله، بل قام خير قيام بمهمته التي لم يتوقف عنها حتى في غياهب السجون، قام يدعو السجناء إلى الله، ويعلمهم شرع الله، كان يعود مريضهم، ويعزي حزينهم، وإذا احتاج منهم إنسان جمع له من المال، كان يعبد الله كثيرًا؛ حتى تأثر به من حوله:

قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ

قال له أحد السجينين: رأيت في المنام أني أعصر العنب خمرًا، وقال الآخر: رأيت أني أحمل خبزًا، فتأتي الطير فتأكل من الخبز، ثم سألاه عن تأويل ذلك:

إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا

وهنا كانت الفرصة مواتية لدعوتهما إلى الله، وقد قام يوسف عليه السلام بهذه المهمة على خطوات:

الخطوة الأولى: الإحسان إليهما، ولمن معه في السجن .

الخطوة الثانية: انتظار اشتداد قناعتهما به، وحاجتهما إليه .

والخطوة الثالثة: أخبرهما؛ ليطمئنهما أنه أول ما يجيء إليهما غداؤهما أو عشاؤهما سيخبرهم بتأويل هذه الرؤيا، فعلق قلوبهم لانتظار الجواب؛ سيأتي الجواب، وستعلمون بعد قليل ما معنى هذه الرؤى، لكن عندي الآن لكما أمرًا مهمًا، وهذا هو معلم الناس الخير:

أ- يرغبهم في سماعه ويشوقهم له.

ب- ثم يبدأ معهم بالأهم فالأهم، فهدايتهم للإيمان أهم من تعبير الرؤيا لهم .

والخطوة الرابعة: دعوتهما بلسان الحال: ذلكما مما علمني ربي: هذا الخير والإحسان الذي رأيتموه مني سببه:

ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

وصف نفسه حتى يُعرف فيأخذ منه، هكذا حالي وحال كل من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين؛ فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماما يقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد، (ذلك من فضل الله علينا) أن جعلنا أنبياء (وعلى الناس): أن بعثنا إليهم رسلا.

الخطوة الخامسة: ثم انتقل يدعوهما بلسان المقال، ويُبين فساد الشرك ويبرهن عليه، ويُبين حقيقة التوحيد ويبرهن عليه:

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)

هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم، المختلفون في صفاتهم، المتنافون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن أم الله:

أ- المعبود بحق، المتفرد في ذاته وصفاته، الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك.

ب- القهار الذي لا يغالبه مغالب، ولا يعانده معاند ؟.

أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام؛ لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام ؟ .

الخطوة السادسة: ثم صرح لهم بزيف ما يعبدون:

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

آلهة سميتموها بأسماء الآلهة:

أ- وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، صماء بكماء .

ب- ما أنزل الله على صحة عبادتها من دليل.

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

والخطوة السابعة: انتقل بعد ذلك إلى الثناء على ربه، وبيّن لهم أن عبادة الله تعالى هي الدين القويم الحق: فالحكم لله العدل، يقضي بالعدل ويفصل بالحق، أمر أن تعبدوه فتوحدوه، وأن تطيعوه؛ فتخضعوا له.

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

هذا الدين هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، والحق الذي لا شك فيه.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

لا يعلمون (حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها)، ابن سعدي.

١- فبيّن لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة.

٢- ثم برهن على أن ما يعبدونه لا يستحق الإلهية.

٣- ثم نصّ على ما هو الحق القويم، والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره، ولا يرتضي العلم دونه.

وهكذا فلتكن دعوتنا للآخرين، لنحمل هذا النور لملايين البشر الغارقين في ظلمة الإلحاد والشرك، لندعو في مقار أعمالنا، وفي تجمعاتنا السياحية، وعلى صفحات الانترنت؛ لندع حيثما كنا، حتى لو كنا في بطون السجن؛ فهذه هي طريقة الأنبياء .

الخطوة الثامنة: وإليكم الآن تأويل الرؤيا:

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ

أ- أما الأول فيفرج عنه من السجن، ويصبح ساقيًا للخمر عند الملك.

ب- وأما الآخر فيُحكم عليه بالإعدام، والخبز الذي تأكل منه الطير هو لحم رأسه وشحمه؛ لأنه سيقتل، ولن يقبر، بل سيصلب حتى تتمكن الطير من أكله.

قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)

ثم أعلمهما أن هذا الأمر قد فُرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن "الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت"، أخرجه أحمد، فابدأ حياتك بالتوحيد، وأنت اختم حياتك بالتوحيد .

وهنا قال كلمة:

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ

يقول: اذكرني عند سيدك، وأخبره بمظلمتي، وأني محبوس بغير جرم.

فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان؛ نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع سبحانه بما هو فيه خلاصه، ولكنه نسي فطال من أجلها في السجن حبسه، عن أنس ﷺ قال: أوحي إلى يوسف: من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال: أنت يا رب، قال: فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال: أنت يا رب، قال: فما لك نسيتني وذكرت آدميًا ؟ قال: جزعًا، وكلمة تكلم بها لساني، قال: فوعزتي لأخلدنك في السجن بضع سنين، والبضع من الثلاث إلى التسع؛ فلبث فيه سبع سنين، وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس يقول نبينا ﷺ: "ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل"، روه الطبراني وغيره.

يا الله، لطفك من أجل كلمة !، قال يعقوب كلمة: (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون)، فعاتبه الله وفرّق بينه وبين يوسف أربعين سنة، وقال يوسف كلمة للسجين: (اذكرني عند ربك)، فعاقبه الله في السجن بضع سنين، كان الحسن البصري رحمه الله، إذ قرأ هذا الموقف يبكي ويقول: ونحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس !! فاتق الله وصل أمرك بربك وخالقك سبحانه، والاستعانة بمن يقدر على العون جائزة، لكن تسليم الأمر كله لله هو مقام الأنبياء عليهم السلام .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)

ومكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، وإذا أراد الله أمرًا سهل أسبابه، وكان سبب خروج يوسف من السجن رؤيا ملك مصر، فقد رأى رؤيا عجيبة:

أ- بقر تأكل بقرًا، وعجاف هزيلات تأكل سمانًا ممتلئات.

ب- وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

ولن يهدأ للملك بالٌ، ولن يستقر له حال؛ حتى يقف على أمر هذه الرؤيا، جمع السحرة، جمع الكهنة، جمع المنجمين، جمع القافة؛ فقصّها عليهم، وسألهم تعبيرها، وتعبير الرؤيا فتوى؛ لأنها إخبار عن كلام الملك الذي ضربها له، فلا يعبرها إلا عارف .

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)

قالوا: أخلاط رؤيا كاذبة، مشتبهة لا حقيقة لها، ونحن أصلاً لا علم لنا بتعبير الأحلام، ولو كانت صحيحة غير مختلطة!، فجمعوا بين الجهل بالعلم والجزم في الحكم؟، وهي حقيقة التعالم، والإعجاب بالنفس، وفيه يظهر الأثر السيئ لبطانة السوء الجاهلة .

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)

وهنا ترجع الذاكرة بعد زمن طويل بالذي نجا من السجن، ويتذكر يوسف الذي أوّل رؤياه، يقول: أطلقوني أمضي لآتيكم بتأويله من عند العالم به، وفي الكلام محذوف قد ترك ذكره؛ استغناءً بما ذُكر، والمعنى: فأرسلوه فأتى يوسف، فقال له:

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ

فوصفه بكثرة الصدق في أقواله وأفعاله، ويجوز لنا أن نثني على شخصٍ بما هو فيه، إذا لم يكن الثناء يضره، ويقطع عنقه.

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦)

قصّ عليه رؤيا الملك، وسأله أن يفتيه فيها، لعل الناس يعلمون:

أ- تأويل هذه الرؤيا.

ب- أو يعلمون فضل يوسف، ومعرفته لفن التعبير.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)

وهنا لم يعنف يوسف عليه السلام الفتى الذي نسى أمره، ولم يشترط الخروج من السجن قبل تعبيرها، بل جمع يوسف الناصح عليه السلام لهم بين تأويله للرؤيا، وبين عرض مشورته فيما يحتاجون إليه، ويستعدون به من التدابير الزراعية والاقتصادية، وأصبحت الرؤيا بعد تأويله واضحة:

أ- أما السمان فسنون مخصبة، وأما السبع العجاف فسنون مجدبة؛ لا تنبت شيئًا.

ب- وأما الخضر فهي السنون المخاصيب، وأما اليابسات فهي سنين القحط والجدب.

ج- والخصب والجدب سيكون في الزروع؛ وخاصة السنبلات التي هي أعظم الأقوات وأفضلها.

د- وسيكون الخصب والجدب في الحروث أيضًا التي تحرثها البقر.

وإليكم المشورة:

أ- تزرعون هذه السنين السبع المتتابعات كما كنتم تزرعون سائر السنين على عادتكم فيما مضى، وما حصدتم في كل سنة من السنين المخصبة اتركوه في سنبله، ولا تفصلوه عنها؛ لئلا يأكله السوس (إلا قليلاً مما تأكلون) في هذه السنين، وهذا ما تؤكده اليوم الدراسات الحديثة: أن ترك الحب في سنبله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية ومختلف الآفات.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)

ب- ثم يجيء من بعد السنين السبع التي تزرعون فيها سنونٌ سبع شداد؛ سنون قحط، يُؤكل فيهن ما قدمتم وأعددتم لهن من الطعام والأقوات في السنين الخصبة إلا يسيرًا مما تدخرونه وتخزنونه.

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)

ج- ثم يصيب الناس غيث؛ فتعظم الثمرات وتكثر؛ حتى أنهم يعصرونها ويتلذذون بها؛ فيعصرون فيه العنب، ويعصرون فيه الزيت، ويعصرون فيه الدهن، ويحتلبون فيه الألبان .

وهذا ليس في رؤيا الملك، لكنه من الفهم الذي أعطاه الله تعالى ليوسف عليه السلام، (ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جدًا)، ابن سعدي.

وعُرض تأويل الرؤيا على الملك، وذُكرت له المشورة، فسمع قولاً لم يجد مثله في بطانة السوء من حوله؛ حسن تأويل، وحسن تدبير:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)

فأرسل رسولاً يُخرج يوسف، ويأتي به من السجن، فلما جاءه الرسول لم يرضَ يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تثبت أولاً براءته، ويعلم الجميع أنه مظلوم، قال للرسول: قبل أن أخرج؛ سل الملك: ما شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، والمرأة التي سُجنت بسببها ؟.

سبحان الله ! لقد أعطي يوسف عليه السلام من الحلم والصبر والأناة ما تضيق أذهاننا عن تصوره؛ ولهذا ثبت عند الطبراني بسند صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما يقول نبينا ﷺ:" عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له، حيث أرسل إليه ليستفتي في الرؤيا، ولو كنتُ أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبتُ لصبره وكرمه والله يغفر له، أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنتُ أنا لبادرت الباب"، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ يقول ﷺ: "ولو لبثتُ في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي".

قال في الظلال (١٩٩٤/٤): "قد رباه ربه وأدبه، ولقد سكبت هذه التربية، وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة، فلم يعد معجلاً ولا عجولاً! إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول له فيه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، والفارق بين الموقفين بعيد".

وأبى يوسف أن يخرج حتى تظهر الحقيقة؛ لأنه سيخرج للناس داعيةً وقدوة، فكيف يخرج وقد طُعن في عرضه! الدعوة عند يوسف عليه السلام أهم من كل شيء، ولو طال السجن.

ورجع الرسول من عند يوسف برسالته إلى الملك:

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)

فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن ودعا امرأة العزيز، وبدأ التحقيق:

١- فقال لهن: (ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) فاعترف النسوة، وقلن: حاش لله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء، لا قليل ولا كثير، الله أكبر!، ما أجمل ظهور الحق بعد مصارعة الباطل، والباطل ساعة، والحق إلى قيام الساعة.

٢- ثم جاء دور امرأة العزيز، فقامت لتعلنها صريحة أمام الملأ وأمام الناس كلهم في مجلس التحقيق، قالت: الآن تبين الحق وظهر، (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) في أقواله وبراءته.

فصاح يوسف عليه السلام فرحًا بظهور الحقيقة:

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

هذه الاعترافات ليعلم العزيز أني لم أخنه قط في عرضه، فكل خائن لا بدّ أن تعود خيانته عليه، ولا بدّ أن يفتضح أمره، وهنا رُوي أن ملكًا من الملائكة قال له: يا يوسف، ولا يوم هممت بها ؟ فقال يوسف حينئذٍ:

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي)، ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسه، استدرك، ونسب لنفسه الضعف والأمر بالسوء، ونسب لربه كمال المغفرة والرحمة، ونحن أيضًا، ما منا من أحدٍ يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمدنا ربنا برحمةٍ منه وفضل، فلنجتهد في طاعة الله وترك معصيته، ولندعوه أن يثبتنا على الخير .

وَقَالَ الْمَلِكُ

نظر الملك :

أ- فتبينت له براءة يوسف.

ب- وتبين له علمه بتأويل الرؤى، وعلمه بعلوم دنيوية كثيرة؛ اقتصادية وزراعية .

ج- وتبين له حسن نصحه، وتكامل مشورته .

د- وتبين له حكمته في طلب براءة عرضه وسمعته، وصبره في عدم تعجله في الخروج من السجن، وكرمه في تأويل الرؤى بغير شرط، وعدله في طلب التحقيق في قضيته .

هـ- بل تبين له عظيم نصحه في تقديم القيام بمصالح الناس وإنقاذهم قبل تقديم مصلحة نفسه وإنقاذها .

ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي

قال الملك: ائتوني به، أجعله من خلصائي دون غيري، وهذه عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفسية خالصةً لهم دون غيرهم.

فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)

فلما أعجبه كلامه وزاد موقعه عنده، وانظر للفارق بين رأي الرجل ورأي المرأة: رأي الرجل نتج بعد سماع كلام وحوار، ورأي النسوة نتج بعد روية وإبصار، قال تعالى: (فلما رأينه أكبرنه) .

وبعد أن كلمه قال: ١- مكناك فيما تريد.

٢- وآمناك على ما عندنا.

فوجدها يوسف عليه السلام فرصة ليتوصل بها إلى نشر العدل ورفع الظلم، وجدها فرصة ليتوصل إلى دعوة أهل مصر إلى الإيمان بالله، وترك عبادة الأوثان.

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)

لم يكن ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما رغبة منه في النفع العام:

أ- ويجوز لمن وثق بنفسه أن يدخل في أمرٍ من أمور السلطان، ليرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل.

ب- ويجوز للإنسان لذلك أن يمدح نفسه إذا جُهل أمره، واستدل على ذلك بأمرين مهمين:

١- الحفظ لما هو موجود، والأمانة في صرفه .

٢- العلم بتدبير الأمور، والقوة على التنفيذ .

وهذه الصفات الأربعة إذا اجتمعت في صاحب ولاية قام بها بجدارة (إني حفيظ عليم)، (إن خير من أستأجرت القوي الأمين) .

وأسلم الملك ليوسف سلطانه كله، وجعل القضاء إليه، أمره وقضاؤه نافذ، وخزائن الأرض وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال تحت يدي يوسف، قال ابن كثير: "وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها؛ ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد"، قال تعالى:

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

فسبحان القادر، سبحان الغالب على أمره، سبحان خير الحافظين، سبحان الحفيظ العليم، وبهذه الأسباب والمقدمات المذكورة مكّن الله ليوسف في الأرض، بعد الحبس والضيق، بعد التهمة والظلم، بعد العبودية والأسر، بعد الحسد والجب،

يتصرف يوسف في أرض مصر كما يتصرف الرجل في منزله، قال ابن جرير: "يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار"، لماذا؟ لأن الله يقول:

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

هي رحمة من الله يهبها من يشاء من عباده، وأهلها المستحقون لها هم أهل الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، وهذا التمكين متى اتقوا الله تعالى فيه لم ينقص أجورهم في الآخرة .

فإن اتقوا الله فيها، كان أجر الآخرة أعظم وأفضل؛ "وما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا؛ كما قال تعالى في حق سليمان"، ابن كثير، (٣٩٧/٤) .

إن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، كما من رجلٍ آتاه الله من فضله فبخل وظلم، كم من رجل فتح الله عليه في المال، فنسي فقره، وقال: ورثته كابر عن كابر، كم من رجل فتح الله عليه في المنصب والنفوذ، فتفرعن وقال: إنما أوتيته على علم عندي، كم من مخدوعٍ خدعته الدنيا فانخدع، أما يوسف عليه السلام، فكان على ما كان؛ ينشر الحق، ويرد الظلم، ويدعو إلى الله، ويرحم الضعفاء، ويخرج مجتمعه من أزمة القحط والجوع التي تعصف به، وهذا ما سنقف عليه بعد قليل.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ

جاءوا إلى مصر من أرض كنعان؛ ليمتاروا طعامًا؛ لما أصابهم القحط، وكانت سنوات شديدات في غاية القحط، ألم يدع النبي ﷺ بمثلها على قريش: "اللهم أعني عليهم بسنين كسنين يوسف"، فعمّ القحط البلاد، وكان الناس يأتون بلاد مصر؛ لأن فيها العدل والإحسان، والحكمة وحسن التدبير.

فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨)

فدخلوا عليه؛ فعرفهم؛ لأنه فارقهم رجالاً، وهم له منكرون؛ لأنهم فارقوه صبيًا؛ يباع بالدراهم في أيدي السيارة، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك، ورونق الرئاسة، وعنده الخدم والحشم؛ فلم يعرفوه، وما أشد هذا اللقاء! وما أقسى هذا الالتقاء بعدما حدث منهم ما حدث!! .

وكان يوسف عليه السلام لا يحمل للرجل إلا بعيرًا واحدًا، حتى يعم الخير الجميع.

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ

أ- أعطاهم ما طلبوه من الميرة، وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافر.

ب- ثم سألهم عن حالهم: من أنتم؟ وما خبركم؟ فأخبروه أنهم اثنا عشر ابناً لأب من الأنبياء، هلك واحد منهم اسمه يوسف، وبقي آخر عند أبيهم، وذكروا له الأخبار، وقصوا عليه الأحوال، فحبس عبرته.

ج- ثم أظهر تعجبه، أنتم أحد عشر أخًا! لا بدّ أن أرى أخاكم الحادي عشر.

قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩)

قال ائتوني: بأخٍ لكم من أبيكم.

(١) ورغبهم في ذلك: ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين، ائتوني به :

أ- كيما أحمل لكم بعيرًا آخر؛ فتزدادوا به حمل بعير فوق أبعرتكم.

ب- وأنا خير من نزل ضيفٌ عنده، والضيافة مشروعة، بل هي من سنن المرسلين.

(٢) وبعد أن رغبهم، هدّدهم:

فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠)

أيّ لا تقربوا بلدي، ولا تصيبوا من خيري وكيلي للناس.

أراد تدبير ما به وصول أخيه إليه، أخوه الذي سيشفي قلبه من أخبار أبيه، أبوه الذي فارقه من سنين.

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)

قالوا: سنطلبه منه، سنجتهد في ذلك بما نقدر عليه، وقيل: سنخادعه حتى ننتزعه منه، وتعلم صدقنا فيما أخبرناك به، ومنه يظهر شدة تعلق يعقوب عليه السلام بابنه بنيامين، وأنه كان يتسلى به بعد يوسف، ويحتاج إلى مراودة في بعثه معهم .

(٣) وتأكيدًا لهذا الأمر؛ وحسنًا لتدبيره:

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

ردّ البضاعة التي دفعوها ثمنًا إليهم؛ لأنه:

١- يعلم شدة حالهم؛ فخشي ألا يكون عند أبيه طعامٌ غيره؛ فرثى له، ولعلهم ليس لهم بضاعة يشترون بها العام القادم .

٢- رده ليعلموا عظيم كرمه؛ فيطمعوا في الرجوع:

أ- كيما يردوا الثمن.

ب- أو يحصلوا على مزيد من الكرم.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣)

ولما رجع أبناء يعقوب عليه السلام إليه عاجلوه قبل أن يفتحوا أمتعتهم، وذكروا له:

١- الدافع المرهب من عدم إرساله: وهو أننا سيمنع منا الكيل والميرة؛ لنا ولأهلنا .

٢- والدافع المرغب بإرسال أخيهم معهم: وهو أننا سنزداد كيل بعير .

٣- وأكدوا له اندفاع المانع من عدم إرساله: فلا خوفٌ عليه، ونحن نحيطه بحفظنا .

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)

وعمل يعقوب عليه السلام بظنه الذي صدقته القرائن، ورد عليهم بحجتين:

الأولى: سابق فعلهم مع شيقيقه يوسف من قبل: فيصعب ائتمانكم عليه؛ لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

والثانية: أن الحافظ على وجه الحقيقة هو الله، الذي يحفظ أخاكم، والراحم على وجه الحقيقة هو الله: فيرحم ضعفنا، وحاجتنا للطعام .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)

ولما لم يفد الترغيب والترهيب، بقيت الحيلة؛ فتحوا أمتعتهم فوجدوا بضاعتهم أعادها يوسف كرمًا عليهم، فزاد عندهم الدافع المرغب:

أ- البضاعة التي دفعناها ردها علينا من فضله وإحسانه .

ب- حصلت ميرة الأهل وطعامهم على خير مما كنا نطلب ونبغي، ونحن مضطرون للقوت .

ج- سيزيدنا فوقها - إن أتينا بأخينا - قدر ما يحمله البعير من الطعام، وهو كيل يسير عليه .

د- ولم يبق إلا أن تتأكد يا أبانا أننا سنحفظ أخانا .

فماذا نطلب من الكرم فوق ذلك !.

ومن هنا يتعلم الدعاة إلى الله أن إكرام الناس، والقيام على حوائجهم من أعظم أسباب جذبهم للخير وتقبلهم له .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

ومع اشتداد وتيرة الإقناع رضي أبوهم أن يرسل أخاهم معهم بعد التثبت من تمام اهتمامهم بحفظهم له، فاشترط عليهم: أن يعطونه عهدًا مؤكدًا وأيمانًا موثقة بالله أن يعيدوه إليه إلا أن ينزل بهم ما لا طاقة لهم جميعًا بدفعه.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك؛ لأنه لم يجد بدًا من بعثهم لأجل الميرة، التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم، نقلاً عن تفسير ابن كثير، (٣٩٩/٤) .

فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

فلما حلفوا الأيمان الموثقة بالله، جعل يعقوب عليه السلام الله تعالى وكيلاً عليهم في ذلك .

ونصح الأب المشفق أبناءه الأحد عشر، وهو يودعهم:

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ

أمرهم إذا دخلوا مصر أن يدخلوا من أبواب مختلفة؛ خاف عليهم العين إذا:

١- دخلوا جماعة من طريق واحد، وهم ولد رجل واحد.

٢- وهم رجال أقوياء، أبناء أنبياء، قال الله في شأن آبائهم: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ).

٣- وجدتهم سارة عليها السلام التي لم يكن لها مثيل في الجمال في زمانها؛ كما ورد في الحديث الصحيح: (امرأة لم يُرَ مثلها)، فلا جرم أن يأتي أبناؤها وأحفادها على هذا النحو من البهاء والجمال.

٤- وخاصةً بعد ما تعجب منهم عزيز مصر.

وهذا سبب، والمقدر لا بدّ أن يكون؛ لذا قال:

وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)

ومع بذلنا السبب، فإننا:

١- نؤمن أن الله تعالى هو الذي يدفع السوء عن عباده .

٢- وهو الذي لا رادّ لقضائه، ولا غالب لأمره، ولا معقب لحكمه .

٣- وهو الذي يكفي من توكل عليه، واعتصم والتجأ إليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا

ولما دخلوا من الأبواب المتفرقة قضوا وطرًا ليعقوب، وهو شفقة الوالد، فحصل له نوع طمأنينة وقضاء لما في خاطره؛ بدخولهم من طرق متفرقة؛ فبذلوا السبب، وتوكلوا على الخالق سبحانه، وهكذا فليكن التوحيد والتوكل .

وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

وهذا من العلم الديني الذي يمنّ الله به على من شاء من عباده، وأكثر الناس لا يوفقون إليه .

قال ابن سعدي: " {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} عواقب الأمور، ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير".

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ

ولما دخل أخوة يوسف عليه، قال: ليبت كل أخوين مع بعضهما، فبات كلٌ منهم مع أخيه الذي يحبه، وبقي أخوه بنيامين لوحده، فقال: هذا بقي لوحده، فسآخذه ليبيت معي.

آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)

ضمّه إليه، وأخبره أنه يوسف أخوه، وطوى القرآن تفاصيل هذا اللقاء، فما أرق لقاء الأمن بعد الخوف! وما أعذب عناق الأخوة بعد الفراق!، وأخبره أخوه بحال أبيه من بعده، وبظلم إخوته له، فسكّن روعه، وقال: لا تحزن مما عملوا معك، ووعده ألا يعيده معهم، واحتال يوسف لذلك حيلة مشروعة، وهيأ الأسباب ليصل لبقاء أخيه عنده .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠)

ولننظر حسن تدبير يوسف عليه السلام للتوصل إلى ما أراده:

حسن التدبير الأول: جهزهم بجهازهم وأكرمهم، وحمل لكل واحد منهم بعيرًا، وجعل سقاية الملك في رحل أخيه، وهي الوعاء الذي يشرب فيه، ويكيل للناس به من قلة الطعام، فلما انطلقوا، أرسل من يوقفهم: أيتها العير إنكم لسارقون.

قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١)

وليدفعوا عنهم هذه التهمة :

١- أقبلوا عليهم، واقتربوا منهم؛ لأن السارق ليس له همٌ إلا الهروب والابتعاد عن مكان السرقة .

٢- وسألوهم: ماذا يفقدون؟؛ ولم يقولوا: "ما الذي سرقنا؟"؛ لجزمهم بأنهم براء من السرقة، قاله ابن سعدي.

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)

حسن التدبير الثاني: قالوا: نفقد صاعه الذي نكيل به، ومن عثر عليه سنعطيه حمل بعير طعامًا مكافأة له، وأنا محدثكم أضمن له ذلك، وهذا من حسن التدبير، ووضع الجوائز والمكافآت لمن ينفذ الأعمال المهمة، ووضع الضمانات لتنفيذ الوعود .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)

فنفوا ذلك عن أنفسهم بأمور:

(١) القسم بالله على براءتهم من السرقة .

(٢) ولقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، وشاهدتهم سيرتنا أننا ما جئنا للفساد في الأرض.

(٣) وأن السرقة ليست من سجايانا وأفعالنا .

(٤) بل كيف تتهموننا بذلك، وقد أعدنا لكم ثمن بضاعة العام الماضي !.

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤)

حسن التدبير الثالث: فقال أصحاب يوسف: فماذا تقولون إن وجدنا متاعنا عند أحدكم؟، وبماذا تحكمون عليه ؟ .

قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)

ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة ارتضوا تحكيم شريعتهم، وفي شريعتهم أن جزاء السارق أن يُدفع إلى المسروق منه، فيتملكه عبدًا، كانت هذه شريعة إبراهيم عليه السلام، وما كان يوسف عليه السلام ليحكم بدين الملك الجاهلي، لكنه أراد أن يحكم بشرع الله؛ وليتوصل إلى أخذ أخيه .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ

حسن التدبير الرابع: بدأ التفتيش، وحسنًا في التدبير بدأ يفتش في أوعيتهم، ثم أخرج سقاية الملك من وعاء أخيه.

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

وبهذه التدابير، يسّر الله ليوسف أسباب هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم، قال ابن كثير تفسير (٤/٤٠١): "وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة".

نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

يرفع الله مقام الناس في الدنيا بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفع درجات يوسف عليه السلام، قال الحسن البصري: "ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل".

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ

فماذا قال أخوة يوسف حين رأوا الصواع قد أخرج من متاع أخيهم ؟، قالوا: إن يسرق هذا فقد سرق شقيقه من قبل؛ يعنون يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وشقيقه قد تصدر منهم السرقة، وليست غريبة منهما، وهما ليسا شقيقين لنا أيها الملك، أما نحن فلا يصدر منا مثل هذا الفعل، سبحان الله! لا يصدر منكم مثل هذا الفعل، وأنتم فعلتم ما هو أعظم؟ سبحان الله لا يصدر منكم مثل هذا الفعل وأنتم فعلتم ما هو أفظع؟ لكن الكريم ابن الكريم، ماذا قال ؟:

فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)

حسن التدبير الخامس: قال يوسف: بل أنتم شرًا مكانًا عند الله ممن قذفتموه، وقد فعلتم ما فعلتم بي وبأبي، والله أعلم بحقيقة ما تذكرونه من سرقتي، وتتهموني به، لكنه من كرمه، وحسن تدبيره لم يبدِ هذه الكلمة لهم، بل قالها في نفسه،.

ثم سلكوا معه مسلك التملق لعله أن يسامحهم، وجعلوا يستعطفونه:

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)

قالوا له: ١- إن هذا الفتى له أب كبير في السن .

٢- وهو يحبه حبًا شديدًا، ويتسلى به عن ولده الذي فقده.

٣- فخذ أحدنا بدله، يكون عندك عوضًا عنه.

٤- وأحسن لنا ولأبينا وله كعادتك التي رأينها منك .

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)

قال معاذ الله، يقول: أستجير بالله كيف آخذ برئيًا بسقيم !، هذا من الظلم، ووضع العقوبة في غير موضعها، ثم أنتم قد أقررتم بما قلتم، وحكمتهم عليه بأنفسكم .

وحسن التدبير السادس: أنه قال: من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: من سرق؛ ليتحرز بذلك عن الكذب .

وكانت هي الكلمة الأخيرة الفاصلة في الموقف، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم ماذا يصنعون ؟

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ

ولما يئسوا أن يجيب طلبهم انفردوا عن الناس، يناجي بعضهم بعضًا سرًا، فقال كبيرهم: ماذا ستقولون لأبيكم:

أ- أنسيتم أنه أخذ عليكم عهدًا أن تردوا له ولده.

ب- أنسيتم فعلكم الأول يوم أضعتم يوسف، فحزن له حزنًا عظيمًا.

"فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي"، ابن سعدي.

فماذا نفعل الآن ؟.

١- أما أنا فسأبقى هنا في هذه البلدة التي أنا بها؛ لعلي أصل إلى طريقة أستخلص بها أخي؛ بحكم الله خير الحاكمين، أو يأذن لي أبي راضيًا عني بالرجوع إلى بلدي.

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا

٢- وأما أنتم فارجعوا إلى أبيكم:

أ- فقولوا له: (يا أبانا إن ابنك سرق)، وقد رأينا جميعًا صواع الملك لما استخرجوه من رحله، فأخذه الملك بسرقته.

ب- فإن قال لكم: ما يدري هذا الملك أن السارق يؤخذ بسرقته إلا من شريعتكم وبقولكم!، فقالوا: (وما شهدنا إلا بما علمنا) أن هذا هو حكم الله.

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)

ج- ولو كنا نعلم يا أبانا أن هذا سيحدث ما كنا لنأخذه معنا أبدًا، ولا أعطيناك عهودنا أننا نرده.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)

فإن سألكم عن أدلة ذلك:

أ- فقولوا له: إن شككت في قولنا فاسأل أهل القرية التي كنا فيها.

ب- واسأل أصحاب القافلة التي أقبلنا فيها، ورافقناها.

ج- واعلم إنا لصادقون فيما أخبرناك به، وهذا الذي وقع، ابنك سرق وأخذوه بسرقته، قالوا ذلك؛ لأن الذي عُرف عنه الكذب لا يُصدَّق وإن صدَق.

فكيف كان حال يعقوب عليه السلام، وهو يسأل تلك القوافل التي رجعت كلها مطمئنة آمنة، ورجعت قافلته وأحد أبنائه فقد، كيف كان حال أب فقد ثلاثة من خيرة أبنائه، يوسف وشقيقه وأكبر أولاده.

فماذا قال لهم؟، وبماذا ردّ عليهم؟ .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا

أ- قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: (بل سولت لكم أنفسكم أمرًا)؛ كالذي زينته لكم مع ابني يوسف، فلمن اشتكي صنيع أبنائي بي؟ لم ترحموا شيبتي ولا حزني ؟ .

وماذا فعل؟.

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)

ب- صبر جميل، لا تسخط فيه ولا جزع، لا شكاية فيه لأحد، إلا للواحد الأحد، عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعًا، إنه هو:

١- العليم بحالي وشدة حزني وضعفي.

٢- الحكيم سبحانه في تدبير أمر خلقه.

ونكئوا جرحه القديم، فتذكر يوسف عليه السلام، والمصائب يرقق بعضها بعضًا، فماذا حدث له ؟

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)

١- أعرض عنهم، وتأسف بأشد الحزن والتندم على فقد يوسف.

٢- ابيضت عيناه من الحزن، وكثرة البكاء .

٣- أصبح مكظومًا على الحزن، مملوءًا منه، ممسكًا عليه، لا يبينه لأحد .

والله سبحانه لا يحاسب العبد على حزن قلبه، ودمع عينه، ولكن على ما يصدر من لسانه وجوارحه؛ من نياحة وتسخط على قضاء الله وقدره، وقد قال النبي ﷺ عند موت ولده إبراهيم: "تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون" .

فبأيّ شيء ردوا عليه؟ :

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)

مع هذه المواقف التي تدمع لها العيون، وترق لها المشاعر، تدرون ماذا قالوا؟، لم يرحموا ضعف أبيهم ومصيبته، بل تأذوا من ذكره لابنه يوسف، وأرادوا قتل رجائه برجوع ولده إليه، قالوا: لا تفتر من حب يوسف، لا تمل من ذكره؛ حتى تضعف قوتك، ويبلى جسمك، وتصبح فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام، أو تكون من الميتين.

سبحان الله، يمنعونه من البكاء والحزن شفقةً عليه، وهم كانوا سبب أحزانه، ومنشأ همومه وغمومه، لكن ليست الشكوى إليكم، لم أظهر حزني لكم، لم أبث همي إليكم:

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

رفع الله قدرك يا نبي الله يعقوب، لما رأى من فظاظتهم وغلظتهم وسوء لفظهم له، قال: لم أشكُ ذلك إليكم، بل جعلت شكواي لله، وبثثتُ نجواي إلى الله، فقولوا ما شئتم، وأنا على يقين بوعد الله وكرمه.

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)

١- أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له.

٢- وأعلم أن الله ربي سيردهم عليّ، ويقرّ عيني بالاجتماع بهم.

فأرجو من الله ما لا تعلمونه.

رفع الله قدرك يا نبي الله يا يعقوب، ما ساء ظنه بالله ساعة من ليل ولا نهار على طول هذه السنين، وتجدد هذه الأحزان.

والخطوة التي ينبغي أن نتخذها الآن:

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ

ألا نيأس من رحمة الله:

أ- يا بني اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه، وخلفتم أخويكم فيه.

ب- فالتمسوا يوسف وأخاه، واسألوا عنهما.

يوسف!، من يعرف يوسف هناك يا أبانا؟ يوسف فقدناه من عشرات السنين؟ ما بالك تذكره، لماذا لا تنساه؟ يقول:

وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ

لا تقنطوا من فرج الله ورحمته، قال ابن سعدي: "إن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه.

إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين".

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

وخرج أبناء يعقوب راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف، فجاءوا يستعطفونه:

١- مستنا الضراء وشدة الجدب والقحط .

٢- وجئنا ببضاعة قليلة، لا تبلغ أن تكون ثمنًا لما نريد.

٣- لكن نطلبك أن توفي لنا الكيل، وتتصدق علينا زيادة على الواجب، إن الله يجزي المتصدقين.

سبحان الله، بالأمس يتعلق بصدر أحدهم وهو صغير فيضربه، ويستغيث بالآخر فيلطمه، لم يرحموه وهم أخوته، والله يجبر خاطره وهو صغير من ظلمهم له، ويقول: (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)، وجاء الوقت فإذا هم يسترحمونه ويستعطفونه، بعد أن استرحمهم واستعطفهم، يترجونه كما ترجاهم، يتوسلون إليه كما توسل إليهم، أدركته الرقة، باح لهم بالذي يكتم منهم، قال:

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)

١- ذكرهم بفعلهم الشنيع الذي فعلوه.

٢- وقدّم لهم العذر؛ بأنهم إنما حملهم على ذلك الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبوه.

قال ابن كثير (٤/٤٠٨): "والظاهر – والله أعلم – أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم".

قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

سألوه: هل يمكن أن تكون أنت أخانا يوسف!، سألوا سؤال استعظام، تعجبوا أن الله أبلغه هذه المنزلة العظيمة، وتعجبوا أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه.

فصرخ بهم: نعم، أنا يوسف، أنا المظلوم الذي أردتم قتله، أنا الطفل الصغير الذي لم ترحموا بكاءه، أنا الذي فرقتم بينه وبين أبيه، ولم ترثوا لحزنه، وهذا أخي شقيقي قد أكرمنا الله، وتفضل علينا، وجمعنا بعد هذه المدة الطويلة من الفرقة.

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)

وكل من يتقِ المحارم، ويصبر على لزوم الطاعات، ويتحمل ما يصيبه من المكاره والأقدار المؤلمة فإن الله سيُعظم أجره؛ لأنه سبحانه يجزي المحسنين بأعظم جزاء .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)

١- فاعترفوا بذنبهم العظيم، وخطئهم الجسيم.

٢- واعترفوا بتفضيل الله ليوسف عليهم بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا.

٣- وأيقنوا أن التفضيل بين الناس إنما هو اصطفاء من الله واختيار، فمن الخطأ أن يحسد المسلم أخاه على نعمة أنعم بها الله عليه .

فما كان موقف يوسف عليه السلام، كان يوسف درسًا في العفو والمسامحة، كان يوسف قدوة كل مؤمن في أن يكون أجره على الله:

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ

١- لن تجدوا عندي عقوبة لكم، بل ولا معاتبة على جريمتكم، بل ولا لوم على فعلكم.

يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

٢- ودعا الله لهم؛ أن يعفو عنهم ويغفر لهم، ودعوة المظلوم مستجابة؛ فجعلها لهم، فكم نتعلم من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ألا نُمعن في التشفي إذا انتصرنا .

وهكذا كانت أخلاق النبي ﷺ، جاءه أبو سفيان بن الحارث يترضاه أن يسامحه يوم فتح مكة، ورسول الله يقول له، وهو ابن عمه:"أنت الذي طردتني كل مطرد"، فأشار علي بن أبي طالب لأبي سفيان: ائته من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين)؛ فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسن منه جوابًا، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

أخبروه بأن أباه ذهب بصره من شدة حزنه لفقده، والشيء إنما يعالج بضده، فقال لهم:

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

أمرهم يوسف بأمرين:

١- أن يلقوا قميصه على وجه أبيه؛ ليستيقن حياته، ويشم ريحه، ويرجع له بصره .

٢- أن يأتوه بأهلهم جميعًا؛ ليحصل لهم تمام اللقاء، ويزول عنهم نكد العيش .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ

ولما فصلت عير بني يعقوب من عند يوسف متوجهة إلى نبي الله يعقوب عليه السلام، قيل: إن الريح استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها سبحانه، فقال الأب الكبير المحزون، وهو بين بقية أهله:

قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)

ولقد تهب لي الصبا من أرضها ... فيلذ مس هبوبكم ويطيب

قال لمن عنده، أخبركم عن أمر: والله، إني لأشمّ رائحة ولدي يوسف، أخبرتكم بذلك فلا تعنفونِ، ولا تسفهونِ، لا تقولوا: خرف أبوكم وتغير عقله، فقالوا كلمة عظيمة، أقسموا عليها كاذبين:

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)

تالله لا تزال تائهًا في بحر حب يوسف، لا تدري ما تقول!، يوسف يا أبانا انتهى خبره، يوسف يا أبانا انقطع ذكره، لماذا لا تنساه ؟ .

سبحان الله: لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها
لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى تكون حشاك في أحشائه

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ

وهناك في مصر، روت الإسرائيليات: أن يهوذا قال: أنا ذهبتُ بالقميص ملطخًا بالدم إلى أبي فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حي؛ فأفرحه كما أحزنته؛ فكان هو البشير.

أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا

كانت ثلاث مفاجآت:

١- مفاجأة البشارة .

٢- مفاجأة القميص .

٣- مفاجأة رجوع البصر .

ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، فردّ الله بلطفه عليه بصره؛ ليرَ ابنه، فصاح فيهم: ألم أقل لكم قبل أربعين سنة:

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)

يا الله، أهكذا يكون حسن الظن بالله! درس عظيم لن ننساه ما حيينا، أن الفرج مع الكرب، وأن اليسر مع العسر، وأن الله مع عبده ما ظن بربه خيرًا، درسٌ لن ننساه ما بقينا أن الكرب يزداد لينجلي، وأن الخطب يعظم لينقضي.

وهنا قال أولاده الذين فرقوا بينه وبين ولده يوسف:

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧)

أقروا بذنبهم وخطئهم مع أبيهم، وطلبوا منه أن يستغفر لهم .

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

قيل: أخرّهم إلى السحر؛ ليستغفر لهم الله الغفور الرحيم في ساعة لا يرد فيها سائل، والشأن كل الشأن أن يغفر الله لهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ

ودخل يعقوب وولده وأهلوهم على يوسف، وخرج يوسف وحاشيته ليستقبلوهم، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على أحد أبنائه، ونظر يعقوب إلى الناس والخيل، فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك يوسف ! فلما التقى الابن بأبيه.

آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)

ضمّ إليه أبويه، وسكت القرآن عن تلك المشاعر والدموع والقبلات، سكت القرآن عن حرارة العناق بعد طول الفراق، وقال لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا

وضع أبويه على العرش، وأجلسهما معه على سريره؛ برًا بهم، وسجدوا له سجود تحية، وكان مشروعًا في شريعتهم، وقد حرّمه الله علينا، وأعطانا خيرًا منه؛ أعطانا السلام تحية أهل الجنة.

وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

بعد عشرات السنين تحققت الرؤيا، بعد أربعين، وقيل: ثمانين سنة، فلا تظن أن الرؤيا لا بد أن تتحقق من الغد.

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي

وتأمل أخلاق الأنبياء، ما ذكر إخوته بسوء؛ لأنه قال: لا تثريب عليكم، قال:

أ- وقد أحسن بي، ولم يقل أحسنتُ إليكم؛ لئلا يمنّ على إخوته.

ب- وقال: إذ أخرجني من السجن، ولم يذكر الجبّ؛ لئلا يجرح مشاعر إخوته.

ج- وقال: وجاء بكم من البدو، ولم يقل: من القحط والجدب؛ لئلا يحرج إخوته.

د- وقال: من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، فحمّلها الشيطان، ولم يحملها إخوته.

أعظم وربي بأخلاق الأنبياء، عباد الله الأصفياء.

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ

ربي لطيفٌ في إيصاله خيره لعبده من حيث لا يشعر، ولطيفٌ في إيصاله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، واسم اللطيف يتجلى في قصة يوسف، لطف به في الجبّ، وهو العليم بخفايا ما يعملون، ولطف به في قصر العزيز، وهو العليم بكيد ما يمكرون، ولطف به في السجن، وهو العليم بتلألؤ دمع المظلوم في غيابة السجون، قال الخطابي: اللطيف: هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون.

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

(إنه هو العليم) بمصالح عباده، وبواطن الأمور وأسرارها، (الحكيم) في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده، والحكيم في وضع الأمور في محالها، وتقديرها في أوقاتها المناسبة لها .

ليذكرنا يوسف بأول القصة؛ لما قال له أبوه: (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم).

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

ربي أنت ناصري ومتولي أموري:

أ- من الدنيا أعطيتني الملك وخزائن الأرض، ووفقتني فيها للعدل، ونفع الناس .

ب- ومن أمر الدين أعطيتني العلم النافع، وعلمتني تأويل الرؤى .

فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أ- يا فاطر السماوات والأرض .

ب- يا وليي في الدنيا والآخرة .

أسألك، وأبتهل إليك أن:

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

لما تكاملت عليه النعم وجُمع عنده الشمل، اشتاق إلى لقاء ربه وأحب أن يلحق بآبائه الصالحين، دعا الله أن يتوفاه على الإسلام، ويلحقه بالصالحين؛ كما دعا نبينا صلى عليه الله وسلم: "بل الرفيق الأعلى ".

وقد جاءت هذه القصة المضفية للسكينة في قلب كل مؤمن، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعاني صلف المكذبين، وعدوانهم على هذا الدين؛ ليقول الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام:

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

جاءتك – يا محمد – هذه القصة وأحداثها التفصيلية مما أوحيتُه إليك وأعلمتُك به؛ لما فيها من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك، كانت هذه القصة وأحداثها التفصيلية مما غاب عنك يا محمد، ما كنت مع إخوة يوسف ولا شاهدتهم؛ لما اتفقوا على إلقائه في الجبّ، وهم يمكرون به؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه، لكن الله هو الذي نجاه ونصره، وكذلك ينجي ربك كل المتقين .

وانتهت قصة نبي الله يوسف عليه السلام؛ لتبدأ التوجيهات الثلاث لرسولنا صلى الله عليه وسلم، ولجميع الدعاة من بعده:

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

التوجيه الأول: لا تظن – يا محمد – أن أكثر الناس سيؤمنون:

١- إذا تليت عليهم أخبار المؤمنين.

٢- وحرصت كل الحرص على إيمانهم.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)

٣- ولم تسألهم عن ذلك النصح أجرة، بل تطوعت به ابتغاء وجه الله؛ في سبيل دعوتهم وهدايتهم .
لا تحسبن منهم ذلك، بل كما قال الله عنهم: {وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله}.

بل اعلم أن وظيفتك – أيها الداعية – أن تُذكّر كل عاقل في هذا العالم بما ينفعه؛ ليفعله ويفوز بخير الدارين، وبما يضره ليتركه وينجو من عقوبة الدنيا والآخرة .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)

ثم تأمل كم من آيةٍ ليست بغيبية، بل هي من الآيات المشاهدات لهم في كل يوم من دلائل آيات الله وأدلة توحيده، يرونها:

أ- في السموات؛ من كواكب لامعة ثابتة، ومن أفلاك سيارة دائرة.

ب- وفي الأرض؛ من حدائق متجاورات، وبحار أمواجها متلاطمات، وجبال راسيات، وأحياء وأموات، وعجائب في الكائنات.

ثم يمرون على ذلك كله، وهم معرضون عن تدبره، وعن الإيمان بخالقه .

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

وما إيمان أكثرهم – يا محمد – بأن الله تعالى هو الذي خلقها، وأبدعها، ورزقها إلا ويصحب إقرارهم هذا شركٌ بالله في عبادته؛ بما لا يمنع ولا ينفع، ولا يرفع ولا يدفع من المعبودات الباطلة، والنيات الفاسدة .

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

فابعث لهم – يا محمد – رسائل تهديدٍ من الله، ولكل الذين كذبوا دعاة الله: قل لهم:

أ- كيف يأمنون عذاب الله أن يعمهم ويحيط بهم في الدنيا؛ فيستأصلهم .

ب- أم كيف يأمنون أن يفاجئهم الله بقيام ساعة الحساب والجزاء؛ فينتقم منهم .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

والتوجيه الثاني: أعلنها – يا محمد – واضحةً جليةً: هذه هي طريقي التي أدعو إليها:

١- هي دعوة خالصة، مقصدها وغايتها وجه الله وحده، لا شريك له .

٢- وهي دعوة قائمة على الحجة والدليل والبرهان، بعيدة عن العمى والتخبط، تبصر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو ؟.

٣- وهي دعوة مبناها اتباع الدعاة اللاحقين للرسل والدعاة الصادقين السابقين، متصلة بهم، آخذة بحجزهم.

٤- وهي دعوة ساعية في تنزيه الله عما لا يليق بجلاله، أو يقدح في كماله، سبحانه .

٥- وهي دعوة تتنكب طرق المخالفين لشرع الله، الصادّين عن دينه وتوحيده .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)

والتوجيه الثالث: أن تتأمل يا محمد:

أ- حال الرسل الذين أوحى الله إليهم من قبلك، كلهم كانوا رجالاً من أهل المدن، لم يكونوا ملائكة من السماء؛ فلماذا بك يكذبون ! .

ب- ثم تأمل أخرى حالهم – وادعوا قومك ليسيروا في الأرض ويتأملوا أحوالهم – كيف نجا الله المؤمنين الصادقين، وأهلك الله المكذبين الضالين؛ فلماذا بهذا لا يعتبرون ! .

ج- ثم ليعتبروا بذلك أن حالهم عنده في الآخرة: للذين اتقوا بامتثاله أوامره واجتناب نواهيه خيرٌ منها في الدنيا، وللذين عصوه وخالفوا أمره شرٌ منها في الدنيا؛ فلأيّ شيءٍ لا يعقلون ! .

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)

لكن ساعة نصر الله ستأتي حتمًا متى ما :

أ- يأس الرسل من إيمان أقوامهم .

ب- وأيقنوا أنهم كذبوهم، وكفروا بدينهم.

ج- ولم يُبقوا لهم جهدًا ولا طاقةً إلا وقد بذلوه في نصحهم .

عندها: ينجي الله عباده المتقين، ويُنزل بأسه على المجرمين .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

لم تكن هذه القصة الرائعة – وكذلك قصص جميع الأنبياء – أحداثًا مختلقة، ولا روايات خيالية، بل كانت الحق الذي جاء فيه:

أ- العبر والفوائد لمن عقلها بقلبه .

ب- والتصديق لما سبقها من كتب المرسلين، والتزييف لما حُرِف من أخبارها .

ج- وتفاصيل كل ما ينفع الناس في شؤونهم الدينية والدنيوية .

د- والهداية لمن بحث عن سبل الثبات ونصرة الدين .

هـ- والرحمة لمن آمن بأخبارها، وعمل بمقتضاها .

جعلنا الله من المعتبرين، والحمد لله رب العالمين، آخر تفسير سورة يوسف، وقد سميته (تحريك القلوب بقصة نبي الله يوسف بن يعقوب)، ومن الله الهداية والسداد، هو مولانا، وإليه المصير.